أشهر القوانين الوضعية

ما من أمة من الأمم إلا ولها قانون، وقد يكون قانونها أعرافًا تحكم الفرد والأسرة والمجتمع، يطيعها كل فرد في المجتمع، ويعاقب من خرج عليها، ولكنها لا تدون.

وبعض الأمم قد تدون قوانينها التي وضعها علماؤها وفلاسفتها وحكامها، وقد يستمدون هذه القوانين من أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقد تخترع عقولهم شيئًا من تلك القوانين، ثم يفرضونها على الناس، ويلزمونهم طاعتها، وهذا هو الشرك والضلال، وسنعرض لأشهر القوانين التي وصلنا خبرها.

١- قانون حمورابي

حمورابي سادس ملوك بابل وأشهرهم (١٧٩٢-١٧٥٠) قبل الميلاد، وقد وضع قانونًا سمي باسمه، وقد دون قانونه هذا على حجر من الديوريت بالكتابة المسمارية، واللغة الأكادية البابلية، ويبلغ ارتفاع هذا النصب (٢٥ , ٢سم) وقطره (٦٠سم) وقاعدته (١٩٠سم)، وقد حمل هذا الحجر من مدينة بابل إلى مدينة سوس، حمله الملك عيلام عندما غزا مدينة بابل، وقد عثر على هذا الحجر العالم الفرنسي الأثري (دي مورجان) في خرائب مدينة سوس في عام ١٩٠٢ ونقل إلى متحف اللوفر بباريس، ثم ترجم إلى اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات، وهو يتألف من ثلاثمائة مادة، إلا أن بعض هذه المواد قد محي، وعدد المواد الباقية ٢٨٢ مادة، وقد عثر على بعض المواد المحذوفة فيما بعد على رقيم من طين في مدينة (نفر) بالعراق.

obeikandl.com

ومواد هذا القانون قصيرة موجزة، وهي تقرر لكل حادثة حكمًا فتبدأ بـ(إذا)، ثم تبين الحكم بعد ذلك، وقد تضمن أحكامًا للتقاضي والعقوبات والملكية والأسرة والمواريث، ونظم العقود الشائعة في عهده[١].

٢- قانون مانو

يطلق قدماء الهنود اسم (مانو) على الملوك السبعة المؤلهين الذين يزعمون أنهم قد حكموا العالم، وقد وضع هذا القانون في القرن الثالث عشر أو الثاني عشر قبل الميلاد، وبقي الكهنة يتناقلونه مشافهة إلى أن دوِّن باللغة السنسكريتية، وقد صيغ بأسلوب شعري، وهو يتكون من ٢٦٨٥ بيتًا من الشعر، وقد ترجم إلى عدة لغات.

وهو يشمل على كل ما يتعلق بسلوك الإنسان وحياته، كما شرع كثيرًا من الضلال والشرك في صورة عبادات[٢].

٣- قانون بوخوريس

«بوخريس» أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين التي حكمت مصر (٧١٨-٧١٢ قبل الميلاد)، وقد دوَّن قانونًا عرف باسمه، وقد استخلصه من الشرائع التي سادت في

---

(١) راجع: «تاريخ النظم والشرائع» للدكتور عبد السلام الترمانيني ص[٥١]. «قصة الحضارة» (٢/ ١٩١-١٩٢). «شريعة حمورابي» ص(٩٠-٩٣). «مبادئ تاريخ القانون» ص[١٥٤] وقد كان المؤرخون إلى عام ١٩٤٧ يظنون أن قانون حمورابي هو أقدم القوانين المدونة حتى اكتشف في عام ١٩٤٧ قانون أصدره الملك «ليت عشار» قبل حمورابي بـ[١٥٠] سنة، ثم اكتشف في العراق بعد ذلك عدة قوانين أقدم من هذا القانون. انظر كتاب: «ألواح سومر» لصمويل كريمر، ترجمة طه باقر - مكتبة المثنى - بغداد.

(٢) «تاريخ النظم والشرائع» ص[٥٣]، و«مبادئ تاريخ القانون» ص[١٥٩]، و«قصة الحضارة» (٣/ ١٦١).

عهود مصر بعد أن عدل فيها ما اقتضته حاجات عصره الذي نشطت فيه التجارة في منطقة الدلتا، وهي المنطقة التي ساد فيها حكم الأسرة الرابعة والعشرين.

وقد استمر العمل بهذا القانون إلى عام ٢١٢ بعد الميلاد، ولكن الحكام أجروا عليه كثيرًا من التعديلات[١].

٤- قانون أثينا

وقد دوّن في أثينا قانونان: قانون دراكون، وقانون صولون.

والسبب في تدوين القانون في تلك المدينة أن ظلم طبقة الأشراف اشتد في تلك المدينة فثار العامة، وطالبوا بتدوين التقاليد العرفية، لوضع حد لاحتكار الأشراف لعلم القانون، فوضع حاكم المدينة (دراكون) قانونًا سمي باسمه سنة (٦٢١ قبل الميلاد)، ولكن هذا القانون قنن الظلم الذي كان سائدًا من قبل ودونه، وكانت أحكامه قاسية شديدة حتى ضرب به المثل في الشدة والقسوة، ولذلك غيَّر صولون ذلك القانون في سنة (٥٩٤ قبل الميلاد) عندما صار إليه الحكم، وقد خفف صولون شيئًا من تلك الأحكام القاسية، وفتح الباب لمشاركة العامة في الحكم في تلك المدينة[٢].

٥- القانون الروماني[٣]

هذا القانون منسوب إلى مدينة روما، وقد أسست هذه المدينة قبل ميلاد المسيح بـ٧٥٤ سنة، وقد بدأ الحكم فيها ملكيًا ثم أخذ أهلها يغيرون على البلاد المجاورة لهم

(١) «تاريخ النظم والشرائع» ص[٥٩]، و«مبادئ تاريخ القانون» ص[١٦٢].

(٢) «مبادئ تاريخ القانون» ص[١٤٧]، و«تاريخ النظم والشرائع» ص[٦٠].

(٣) راجع في هذا المبحث كتاب «القانون الروماني والشريعة الإسلامية» ص(٢١-٢٥)، ومقدمة معرب كتاب: مدونة جوستينيان ص (ك. ل).

ويوسعون رقعة بلادهم، وانتهوا بأن قلبوا الحكومة من ملكية إلى جمهورية في سنة (٥٠٩) قبل الميلاد، وقد كان الرومان في بداية عهدهم يحكمون بالتقاليد والعادات الدينية التي كانت تسود مجتمعهم، واقتصرت قواعد القانون في البداية على أمور الأسرة وعلى بعض النظم المدنية، وعرف الرومان نظام التبني المدني، ونظام الإشهاد والتوريث بالوصية، وعقد الاستدانة.

وفي سنة (٤٥١-٤٥٠ ق.م) صدر في روما قانون الألواح الاثني عشر، وبوضع هذا القانون يكون القانون الروماني قد بدأ في النضج، فقد وضعت القواعد العرفية في قانون مدون، ويعتبر قانون الألواح الاثني عشر البناء الأساسي للشريعة اللاتينية، فقد تناولت أحكامه النظم المدنية بصورة مستقلة عن الدين، فلم تشتمل على كفارات أو عقوبات دينية كما كانت الحال في المرحلة السابقة، واقتصرت الأحكام الدينية فيه على بعض القواعد المتعلقة بالجنائز، ويعتقد أنها اقتصرت - أيضًا - على بعض الأحكام الخاصة بالتقويم الديني الضرورية لإجراءات التقاضي.

وقد اتصف قانون الألواح الاثني عشر بكونه قانونًا عامًا للرومان على اختلاف طبقاتهم وعقائدهم دون غيرهم من سكان روما، كما تميز بكونه تشريعًا ضيقًا في إجراءاته وقاسيًا في أحكامه.

وقد عقب إصدار قانون الألواح تطورات هامة على القانون الروماني ترتيب على تفاسير الفقهاء الذين عملوا بدراسة القانون وتأويل نصوصه، وترتبت على القرارات التشريعية المختلفة الصادرة عن مجلس الشعب.

وقد توسعت روما وسيطرت على بلاد كثيرة فامتد حكمها إلى مصر وبلاد العرب وأرمينيا، وبيزنطة (القسطنطينية)، وفي سنة (٣٩٥م) قسم الامبراطور (تيودور) الدولة إلى قسمين: شرقية وعاصمتها القسطنطينية، وغربية وعاصمتها روما، وجعل الأولى

لولـده (أركاديوس)، والثانية لولده (توريوس)، ولكن الغربية لم تلبث أن أغارت عليها بعض الأمم الجرمانية وغيرها فقضت عليها في سـنة ٤٧٧م، وقد طبق القانون الروماني على جميع سـكان الامبراطورية في هذه الفترة، ومنح جميع سـكان الامبراطورية الجنسـية الرومانيـة، وحدث صراع عنيف بين القانون الروماني وقوانين وعادات البلاد المفتوحة، وتسربت قوانين البلاد المفتوحة إلى القانون الروماني وتكاثرت المبادئ وتنوعت مصادرها وتضاربت أحكامها.

وفي عهد الامبراطور جوسـتينيان الذي تولى الحكم سـنة (٥٢٧م) جمعت القوانين الرومانية ودونت في مجموعات رسـمية. ففي سـنة (٥٣٣) نشر الامبراطور جوسـتينيان مدونتـه Institutes، كـما نشر أحكام القانـون الروماني وقواعده، مسـتمدة من كتب من قبله من رجال القانون في مجموعة سماها «البندكت» Pandectes أو «الديجست» Digest، ومعنـى الكلمـة الأولى: الحاوي الأوفى أو الجامع الأوفى، ومعنـى الكلمة الثانية: المختار أو المنضـد أو المسـتصفى أو المهذب، ومن قبل سـنة (٥٣٣) كان قد نشر مجموعة قوانينه Code نشرًا متقطعًا ثم أعاد نشرها في سنة (٥٣٤) تحت اسم المجموعة القانونية الجديدة Nouveau Code، وأما ما أصدره من المراسـيم بعد سـنة (٥٣٣) فقد أطلق عليها اسـم «المراسـيم الجديدة» Novelles تمييزًا لها عما بمدونته وعما بالمراسيم الأخرى الصادرة قبل مدونته، ومن أهمها المرسـومان الجديدان الصادران في سـنتي (٥٤٤) و(٥٤٨م) في مواد المواريث.

على أن هذا لا ينبغي أن يؤخذ منه أن عصر جوسـتينيان كان عصر ازدهار القانون الروماني، كلا. بل إن هذا الازدهار ولى زمنه وانقضى بانقضاء حكم الامبراطور إسكندر سـيفير سـنة (٢٣٥) بعد الميلاد، وأكبر فضل لجوستينيان أنه وفق إلى جمع القانون القديم وتدوينه وحفظه من الضياع.

٦- قانون العرب في الجاهلية

لم يكـن للعرب قانون مدون، ولكن العرب كانوا يعرفـون قانونهم، ويلتزمون به، وقد كان بعض ما في قانونهم حقًا، اهتدوا إليه بعقولهم، أو ورثوه من دين أبيهم إبراهيم، وكان فيه مع ذلك ضلال كبير.

فمن ذلك إجازتهم لوأد البنات خشية العار، وقتل الأولاد خوف الإملاق، وتحريم بعض الأنعام كالسائبة والوصيلة والحام، وأجازوا نسبة الولد إلى غير أبيه بالتبني، وكانت المتـوفى عنها زوجها تعتد حـولًا كاملًا، وكان لأكبر أبناء الرجـل أن ينكح امرأة أبيه بعد وفاته، وغير ذلك من القوانين الظالمة الجائرة، ومن الحق الذي كانوا عليه تحريم القتال في الأشهر الحرم، وتعظيم الكعبة، وإباحة التجارة، والقسامة، وغير ذلك.

٧- القوانين في أوربا

القانون الكنسي هو القانون الذي كان سائدًا في أوربا قديمًا، وهو مأخوذ من القانون الروماني ومما شرعه الرهبان لأتباعهم، مصتبغًا بالصبغة الدينية، وفيه ضلال كبير.

وفي مطلع القرن التاسـع عشر وضـع نابليون قانونه المعـروف بقانون نابليون، ولم يمـض وقت طويل حتـى وضعت الدول الأوربية قوانينها محتذيـة القانون الفرنسي، ولم يتخلف عن ذلك غير بريطانيا.

وكل القوانين الأوربية تأثرت بالقانون الروماني تأثرًا كبيرًا، ومن ذلك أنها ابتعدت عن الأحكام الدينية، ولم تقننها، وبذلك فصلت الدين عن الحياة.

هذه القوانين قوانين ظالمة

ينظر كثير من رجال القانون اليوم إلى هذه القوانين نظرة التعظيم والتبجيل، ولكن فقهاء المسلمين ينظرون إليها نظرة مختلفة، فالقاعدة عند المسلمين أن الله هو الحكم العدل، وشرعه هو الذي ينبغي أن يحكم ويسود.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وهؤلاء الذين وضعوا هذه القوانين ونفذوها في رقاب الناس طغاة ظلمة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

ولا يظن ظان أن الشرائع الإلهية لم يكن لها وجود عندما وضعت تلك القوانين، ففرعون جاءه موسى بالحق الأبلج فنادى في قومه قائلًا:

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وقال لقومه:

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩].

ونصب نفسه إلهًا يصدر الأحكام ويعبده الناس، وقال لهم:

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال:

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

لقد كان الإله الذي يعبده أهل بابل: الشمس وكانوا يسمونها إله المعرفة، وكان حمورابي يدعي أنه يمثل إله المعرفة في الأرض، ففي أعلى الحجر الذي دون عليه حمورابي قانونه نقش صورة معبوده الإله شمس، وكانوا يعتقدون في بابل أنه ديان الكون الأعظم، نعم نقش صورة معبودة وهو جالس على عرشه يملي على حمورابي أحكام القانون.

لقد علا حمورابي واستكبر كاستكبار فرعون، فقد جاء في مقدمة قانونه قوله:

«أنا حمورابي، ملك العدالة».

«أنا الذي أهداني الإله شمس هذه القوانين»[(١)].

لقد ضل عندما اتخذ الشمس إلهًا.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقد كان كاذبًا عندما زعم أن إلهه هو الذي أوحى إليه بتلك القوانين، ولقد كان مخادعًا عندما نسب هذه القوانين إلى الإله الذي يقدسه قومه ليجعلها قوانين مقدسة، ولقد كان مستكبرًا استكبارًا عظيمًا عندما زعم أنه ملك العدالة.

ولقد ختم قوانينه بالثناء على نفسه والتمجيد لها لوضعه هذا القانون، كما لعن كل محرف ومغير له.

وهذا اللغو موجود في كثير من القوانين القديمة، (فمانو) يزعم أن قانونه قد أوحي إليه به من الإله (براهما)، وقد أوحى مانو بالقانون الذي تلقاه إلى الكهنة الذين حفظوه.

---

(١) «تاريخ النظم والشرائع» ص[٥١]، «قصة الحضارة» (٢/ ١٩١-١٩٢).

obeikandl.com

وقد اتخذ الكهنة من هذا القانون طريقًا للاستكبار والظلم والطغيان، فقد قسموا المجتمع الهندي إلى أربع طبقات: طبقة الكهنة البراهمة، وطبقة الأمراء والمحاربين، وطبقة التجار، وطبقة العمال، أما ما عدا هذه الطبقات فهم فئة المنبوذين، وهم في نظر الطبقات الأربعة نجسون، يحرم لمسهم والاتصال بهم، وطبقة الكهنة تتمتع بجميع الحقوق العامة والامتيازات، وطبقة المحاربين لا تتمتع إلا بجزء منها، أما طبقة التجار والعمال فهي محرومة من جميع الحقوق العامة، ونجد في هذا القانون تفاوتًا في الحقوق الخاصة أيضًا، فهو مثلًا يعترف بحق تعدد الزوجات، ولكنه يجيز لطبقة الكهنة الزواج من أربع، ولا يجيز لطبقة المحاربين إلا ثلاثًا، ولطبقة التجار اثنتين، أما طبقة العمال فلا يجوز لهم الزواج بأكثر من واحدة[(١)].

لقد وُضِع القانون لمصلحة فريق واحد من البشر له كل الحقوق والامتيازات، أما الآخرون فحقوقهم مهضومة، ثم ينسبون هذا القانون إلى الإله الذي يعبده الناس، ليكون لهم سلطان على الناس باسم القانون المقدس.

إن الحكام والسادة يظنون أن القوانين إنما هي منحة يقدمونها للشعب، ويمنون بها عليهم، وفي كثير من الأحيان يسخرون هذه القوانين لظلم العباد، وامتصاص دمائهم، والاستعلاء فوق ظهورهم باسم القانون، وليس هناك من قانون يحكم العباد بالعدل إلا الشرائع التي تحكم العباد بالعدل والقسطاس، وهي الشرائع الإلهية الربانية، لا تفرق بين حاكم ومحكوم، وغني وفقير، وسيد ومسود.

﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

---

(١) انظر: «تاريخ النظم والشرائع» ص[٥٣]، و«مبادئ تاريخ القانون» ص[١٥٩]، و«قصة الحضارة» (٣/ ١٦١).